اللغة والأسلوب في شعر (عرار)

للدكتور محمود السمرة
(نائب رئيس مجمع اللغة العربية الأردني)

قبل ثلاثين عاما توفي مصطفى وهبي التل ، وقبل خمسة وعشرين عاما صدرت الطبعة الاولى من ديوانه « عشيات وادي اليابس » في عمان .

ورغم ان عرارا مشهور معروف في الاردن ، وهو شاعر الاردن دون منازع ، يحفظ شعره المثقفون ، ويردده حتى من نالوا حظا قليلا من الثقافة ، الا انه لا يكاد يعرفه أحد خارج الأردن .

لماذا ؟

لعلّ من اسباب ذلك ان ديوانه الاول صدر في وقت كانت فيه امكانيات الطباعة في الاردن محدودة جدا : فالحروف صغيرة ، والاخطاء كثيرة ، والورق رديء ، والتوزيع معدوم .

ثم : ان شعر عرار مُحَلّي ، مغرق في محلّيته : محلّي في موضوعاته ، واشاراته ، وكثير من تعبيراته . وما لم يتمثل القارىء هذه كلها تمثلا واضحا ، فان تجاوبه مع هذا الشعر يبقى محدودا . وقد بذل المرحوم الاستاذ محمود المطلق جهدا طيبا في شرح ما يحتاج الى شرح ، لتقريب هذا الشعر الى أذواق القراء العرب . واذكر انه ما من مرة تذاكرت شعر عرار مع اخوة عرب ، وقدّمت لهذا الشعر بما يُعين على ادراكه وتمثّله ، الا وجدت عندهم استجابة له ، ودهشة لان مثل هذا الشاعر غير معروف عندهم .

ثـم : هناك لوم يقع على ادبـاء الاردن : فهم لم يعنوا انفسهم بالتعريف بالشاعر وتقديـم الدراسات عنه ، الا في نطاق محـدود .

* * *

لكـلّ هذا وجدتُ أن الحاجة اصبحت ملحّة لاصدار طبعة ثانية مـن الديوان ، وخاصة عندما وُضعت بين يـدي أوراق الشاعـر ، فوجدتُ فيها شعرا يستحق أن ينشر ، ولـم ينشر .

وهكـذا ، في سنة ١٩٧٣ صدر ديوان « عشيات وادي اليابس » في طبعة جديدة فريدة ، تعكس تقدم فـن الطباعة في الاردن الحديث ، وتضع بين ايدي القـراء شعر الشاعر الاول في الاردن في شكل يليـق بجمال هذا الشعر ؛ وقد زينتـه رسومات الفنان الموهوب مُهَنّا الدرة ، آملين من ذلك أن نستطيع ايصال الديوان الى أيدي محبي الشعـر الجيـد ، لا في الاردن فحسب ، بـل في اكثر عدد ممكن من البـلاد العربيـة الشقيقـة .

ولكـن ما ا ردناه لم يتحقق ، لسبب بسيط هو افتقارنا الـى مؤسسة ، أو شركة ، لتوزيع الكتـاب الاردني وتسويقه . وبقيـت هذه الطبعة يسعى الى الحصول على نسخة منها ، ويجـدّ في السعي ، من يجـد الرغبة في ذلك .

* * *

وفي رأيي انـه ما زالت هناك حاجة الى اصدار طبعة جديـدة من الديوان ، يقـوم المحقق فيها بايراد الروايات المختلفـة للأبيات ، وترتيبها في القصائد ؛ فقـد خلصتُ من اطلاعي علـى أوراق الشاعر الى أن الصورة التي بين ايدينـا للقصائد والابيات ، ليست الا صـورة واحدة من صور عـدة : ففي كثير من القصائد نجـد ترتيب الابيـات مختلفا ، والتغيير في الفـاظ الابيات كثيرا . ويحضرني هنـا التحقيق الامثل الذي قـام بـه المستشرق Ritter لكتاب « اسرار البلاغة »

للامام عبد القاهر الجرجاني ، وتحقيق الاستاذ الدكتور ناصر الدين الاسد لديوان قيس بن الخطيم ، وتحقيق الاستاذ الدكتور احسان عباس لديوان لبيد . على هذه الصورة نريده . وقد شغلتني شواغل كثيرة عن النهوض بهذا العمل الذي يستغرق وقتا طويلا .

وفي رايي ان اوراق الشاعر التي بين ايدينا ، تغري الناقد ايضا بالقيام بدراسة نقدية نفسية : تدرس حياته ، وظروفه ، ومجتمعه ، باستقصاء . ثم تنظر في زمن نظمه لكل قصيدة ، والاسباب النفسية التي دعته لهذا التقديم ، وذاك التاخير ، وشطب هذه الكلمة او تلك ، ولماذا استبدل بها غيرها . إن قام بهذه الدراسة ناقد بارع موهوب ، فربما حصلنا على دراسة نقدية ممتعة ، على غرار الدراسة التي وضعها John Middleton Murray عن الشاعر Keats بعد ان حصل على اصول قصائد الشاعر بخط يده .

* * *

وبعد ، فان لي على شعر عرار الملاحظات التالية :

١ ــ شعر عرار بسيط في مضمونه وشكله ، يقترب كثيرا من كلام الناس الذين هو منهم : عاش بينهم ، يشاركهم افراحهم ، واحلامهم ، وآمالهم ، ويأسى لاحزانهم ، وتدميه آلامهم؛ومع هذا فلشعره فعل السحر في نفوسهم .

لماذا ؟

في رايي ان السر في قوّة تاثير شعر عرار في النفوس انه شعر يعبّر عن تجربة محلية وانسانية ، معا ... تجربة عميقة ، فيها قدر طاغٍ من حدة الاحساس . وهو يعبّر عن هذه التجربة بالفاظ مشحونة بهذا الاحساس . وحالة الانفعال الحاد ، حالة تميّز الشعر الجيد عن غيره من الفنون الادبية الاخرى ؛ وهي حالة تصاحب الشاعر في اثناء عملية الابداع الفني ؛ ذلك لان الشاعر

الحق انسان يتمتع بحساسية غير عادية ، تجعله يتعاطف مع احداث الحياة الانسانية بدرجة عالية .

واللغة التي يستعملها عرار ، رغم محليتها ... ورغم بعض الاخطاء اللغوية والعروضية ، حافلة بالحياة ، تفتح عيوننا على عيوب في المجتمع ، قد نمرّ بها دون ان نحسّ بها ، واذا احسسنا بها ، فقد يكون هذا احساسا عابرا . ولكنها في هذا الشعر دفقات قوية ، تنبه العقل ، والنفس ، والاعصاب .

ومن الخطأ ان نعتبر شعر عرار وثيقة تاريخية ترسم بدقة ما كان يسود شرق الاردن زمنه ؛ ذلك لاننا نعرف ان الشعر ذاتي ، والشعراء يعبّرون عن احاسيسهم ، وانفعالاتهم الخاصة . ونحن في بحوثنا لا نعتمد شعر الشعراء وثائق نستشهد بها ، وان كنا نستعين بها في حدود ضيقة . وهذا لا يضير الشعر ولا الشاعر : فالصدق الفني هو غاية الشاعر ، أما البحث عن الحقيقة فغاية العالِم .

ان الشاعر لا يعرض لنا الحقائق عرضا موضوعيا كما توجد في الواقع ، بل يحوّرها بفضل ملكة الخيال التي وُهِبَها ، ويكوّن منها كُلاً فنيا موحَّدا . ومنذ ان كان في الدنيا شعر ، كان قدر الشاعر أن يرى ويرصد المظاهر المختلفة لهذا الكلّ المعقد الذي نسميه الحياة الانسانية ، ثم يعبّر عن وقع هذا الوجود على وجدانه بصدق وجمال .

وسواء اقُلْنا بعد قراءة الشعر إننا نوافق الكاتب في رأيه ، أم لا نوافقه ، لان الحياة في واقعها ليست كما يراها ، فهذا ليس هو المهم ، وانما المهم أن قراءتنا لهذا الشعر تجعلنا ننظر الى الحياة من زوايا جديدة ، وتضيف الى تجربتنا في الحياة تجارب جديدة ، قد تكون أعمق وانضج ، حتى اننا لنحس ، عندما نطوي آخر صفحة ، اننا ازددنا معرفة بالحياة والانسان .

وانت في شعر عرار تدخل دائرة التأثير ، وتبقى فيها الى أن تصل الى نهاية القصيدة ؛ ذلك لان شعره يخلو من سقطات بعض الشعراء

الكبار ، الذيـــن يجمعون احيانا بين الرائع والرديء في القصيدة الواحدة ، ويجمعون بين صورتين متنافرتين في بيتـــين متتاليين .

واذا كنـــا قد بدانا القول بان من صفات شعر عـــرار انـــه شعر مُحَلّي ، بالمفهوم الذي حدّدناه ، فمـــا موقف الجماليين ، والنقاد الجـــدد (The New Critics) ، الذين يسيطرون على دنيـــا الادب في ايامنـــا هذه في الغرب ، من مثل هذا الشعر ؟ انهم يرون أن القصيدة الجيدة مكتفية بذاتهـــا ، لا تحتاج للكشف عن اسرار الجمـــال فيها الى أن نعرف مناسبتها وظروفها ، ولا حتى من نظمها . وفي رايـــي أن هذا القول صحيح ، ولكن في حـــدود . وانا لست من المؤمنـــين ايمانا مطلقا بمـــا يقولون ، ومن المؤمنين بالمنهـــج التكاملي الذي يرى الاستفادة من كـــل النظريات النقدية ، لانهـــا متكاملة ، غير متناقضـــة . والاختلاف بينها هو اختلاف في زاوية الرؤيـــة .

٢ ــ شعر عـــرار شعر ملتزم .

وقـــد كان عرار شاعرا ملتزما ، بكل ما في هـــذا المصطلـــح من دلالة وابعاد . وكانت مواقفه واضحة جريئـــة : فقد وقف الى جانب الفقراء ، والمعوزين ، وهاجـــم المستغلّين ، ودعا الى المســـاواة ، ونـــادى بالعدالـــة .

وهـــذا موقف سيبقي عرارا مذكورا دومـــا كشاعر صاحب رسالة ، اجاد التعبير عنها في شعـــره .

وهـــذا يجعلنا نقف أمام قضية مهمـــة في الفن : فنحن كلما تناقشنا في الفـــن عامة ، وفي الشعر خاصة (وساقصر حديثي هنا على الشـــعر) ، تساءلنا : مـــا غاية الشعر ؟

يـــرى البعض أن غاية الشـــعر هي المتعـــة ، وان القصيدة الجيدة هي التي تولـــد اكبر قدر منها . وفي رايي أن المتعـــة نتيجة ، لا غايـــة ، وان غاية الشعر عرض التجربـــة الانسانية عرضا يُرَسّخ في نفوسنـــا

قيمـا ومواقف ، واذا كانت غاية العلـم تفسير الوجود ، فان غايـة الفـن تقييم الوجود . وهذا ما فعلـه عـرار في شعره .

وهذا ما عناه كولردج في كتابه القيم « سيرة ادبية »
Biographia Literaria

عندما قال : ان الشعـر ليس مجرد انفعالات واحاسيس ، فارخص انواع الادب قادر على اثارتها . انـه رؤيا ، وكشف عن اسرار الوجود .

* * *

ورغـم التزام عرار العميق الحاد ، فانه كان في الوقت نفسه رومانسيا ، مغرقا في رومانسيته . واذا كـان الرومانسيون الغربيون قد عبّروا بشعر حافل بالعاطفة المشبوبة عن ثورتهم ، وهربوا الـى الطبيعة والحياة البسيطة ، عندما ادركوا عجزهم عـن التغيير ، فقد فعل عرار مثلهم : هرب الـى مضارب النَوَر ، والى حياة الريـف ، حيث البساطة ، وراحة البـال ، والمساواة التامة :

الكـل زُطّ ، مساواةٌ محقّقة تنفي الفوارق بين الجار والجارِ

* * *

٣ ــ شعر عـرار شعر للرمز فيه دور كبـير .

والحديث عن الرمز في شعر عـرار حديث قد يطول ، ولهـذا سأقصر حديثي عن الرمـز عنده على ثلاثة جوانب بـارزة :

اولهـا : شخصية الهبر : وهي شخصية حقيقية ، ورمزية ، فـي آن واحـد .

وقـد وصف المرحوم الاستاذ يعقوب العودات الهبر ، فقال :

« شخصية نَوَريّة ، دميمة الخَلْق ، مستقبَحة القـوام ، اختارها عرار لزراية شكلها ، وحقارة شانها ، هدفا لسهام نقـده ، ومخاطبتها عندما يحلو لـه خطاب ذوي الشأن ، واستفزازهم » . (عـرار شاعر الاردن ، ص ١٣٨) .

ويقـــول المرحوم الاستاذ محمود المطلق :

« راى عـــرار في هذه الشخصية انموذجا كاملا لشخصية النَوَريّ ، ومثالا معبّرا عن كل ما في النَوَر من خير وشر ، وسمو وانحطاط . ولهـــذا فقد اتخذ منه رمزا للنَوَر، واداةً ادبيـــة يستعين بها على التعبير عـــن آرائه ومقاصده ». (المقدمة ، ص ٢٣) .

وتقـــول الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي :

« لعـــل عرارًا كان أول شاعر عربـــي حديثٍ اخترع نماذج عليا في الشعر ، وجعلها رموزا لقضايـــا حيوية . جعل من الهبر رمـــزا للانسان البسيط المنبـــوذ المضطهد » . (مجلة عالم الفكر ، العدد الثاني).

وحقيقـــةُ الامر ان الهبر في شعر عـــرار رمز لاكثر من هـــذا :

انـــه رمز لما يتعاطف معه عندما يرى فيه الانســـان البسيـــط ، المنبـــوذ ، المضطهد ، والانسان المشرد الضائـــع .

وهـــو رمز لما يثير السخرية عندما يرى فيـــه الانسان الذي فَقَد كل احساس بالكرامـــة .

* * *

ويبـــدو الرمز عند عرار ، ثانيا ، في شخصية الشيخ عبّود النجار . وهي شخصية تُناقِض الشخصية الاولى تمامـــا : فهي رمز لفئة متزمتة منتفعة : فِئَتُها : « في الجنة الخلودُ » ، ومبداها انها : « حِصَّةُ مَن فـــي جيبـــه نقـــودُ » .

وسخريته منهـــا ، ورفضه لها ، لانها بسلوكها تساهم في ابقـــاء الشعب على حالـــه من الجهل والتخلّف .

* * *

ويبـــدو الرمز عند عرار ، ثالثا ، في كل امـــراة تغزّل بها ، وكلّ قرية ذكرها ، وكـــلّ وادٍ تَغَنّى بـــه . انها كلها رموز لهذا الوطـــن ، الذي أَحَبَّ كلَّ من فيه ، وما فيـــه .

٤ ــ شعر عــرار شعر عمودي ، منظوم على اوزان الخليل ، ما عدا قصيدتين همــا :

« متــى ؟ » و « يــا حلوة النظرة » .

ومــن الخطأ الشائع ما نردده من أن كل قصيدة نظمت علــى وزن من أوزان الخليل فهــي قصيدة عمودية ، مع أن الوزن (أو البحر) ليس سوى شرط واحــد من سبعة شروط حَدَّدها النقّــاد العــرب القدامــى ، وجعلوها المبادىء التي يجــب أن يقتفيها الشعــراء .

وكــان المرزوقيّ خير من حدّد مفهوم عمــود الشعر ، وذلك في مقدمته لشرح ديوان الحماسة ، في قولــه : « انهم (القدماء) كانــوا يحاولون : شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفــظ واستقامته ، والاصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار لــه ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهــذه سبعة أبواب هي عمــود الشعر ، ولكل باب منها عيار (اي مقياس) » . وجــاء ابن طباطبا فكتب كتابه المعروف « عيار الشعر » .

وشِعر عــرار عموديّ بهذا المفهوم للشعر العمودي الجيــد .

ولــو تأملنا في هذا التعريف لوجدنا كثيرا من الشعــر الذي يُعْرَف بانه عمودي ، ليس عموديــا .

* * *

هــذه ملاحظات نقدية عامة على شعر عــرار ، لعلها تصلح مخططا لدراسة موسعــة .

ويبقــى عرار ، بعد هذا ، شاعرا لم ينل من عناية الدارســين مــا يستحقــه .

ومــا زال مجال القول فيــه واسعــا .

الدكتور محمــود السمرة